أصوات من فلسطين الجديدة (٢): عودة الغائب

ملف من جزءيْن (قد يَتْبعهما ثالث)

إعداد وتقديم: عمر برغوثي

عمر برغوثي

«لماذا قتلوه؟» سألتني ناي ـ ابنتي التي لم يَبْلغ عُمرُها عددَ أصابع يدها الصغيرة ـ بعدما شاهدتْ على التلفاز، بل عاشَتْ ما وراء التلفاز، قتلَ محمّد الدرّة. شاهَدَتْه بفجيعةٍ لا تليق بعمرها وبراءتها، ولكنَّ الجريمة لم تكن لائقةً أيضًا بعُمر محمّد وبراءته. لم يكن بالإمكان أن أجيبها بكليشيه جاهز: فهي أذْكى من أن تَقْبله، وأنا أكثرُ حساسيَّةً من أن أكتفي به. لذلك أجبتُ: «لأنَّهم لم يعودوا يفكّرون كبشر؛ فالكرةُ أصابهم بالجنون.» لم تقتنعْ، ولكنَّ دموعها الحبيسة في عينيها العسليَّتيْن الجميلتَيْن ألْهَتْها عن استجوابي. لماذا؟ بقي السؤال عالقًا في رأسي دون إجابة.

متى يتوقّف الإنسانُ عن كونه كذلك؟ أو بالأحرى متى تُهَيْمِن المكوِّناتُ الأخرى لهويَّة الإنسان على المكوِّن الأول والأهمّ: كونه إنسانًا؟ لا بدّ لنا أن نَعْكس السؤالَ على أنفسنا، قبل أن نَطْرحه بجديَّة على الآخر: ما عمقُ هذا العنصر الجوهريّ في تكوين هويَّتنا العربيَّة ـ الفلسطينيَّة؟ ألا نَسْمح لأنفسنا أحيانًا، أو أكثر قليلاً، أن نستمرئ كونَنا ضحيةً، فنبيحَ لأنفسنا تجميدَ إنسانيَّتنا لحينٍ من الزمن، أو ـ وهذا أخطر بكثير ـ نعيدَ تعريف إنسانيَّتنا لتبيحَ لنا إتقانَ دور الضحيَّة؟ هل يُسمح للمناضل أن يَقْتل طفلاً من «الأعداء،» أو أن يمارس دور المضطهِد (بكسر الهاء) في بيته؟ هل نؤجِّل صرخات المكوِّنات الأخرى لهويَّتنا حتى ينتهيَ صراعُنا مع الآخر؟ لِمَ نُناضل؟ من أجل ماذا؟ لجزائر جديدة، أم لكوستاريكا عربيَّةٍ حرَّةٍ أبيَّة؟ ماذا يَعْني العِلْمُ عندما تُنْتجه مصانعُ تلّ أبيب؟ ما هو الوطن الذي نَبْحث عنه بخيالنا ونُنتجه بفعلنا ومثابرتنا؟ ماذا يَعْني الوطنُ أصلاً إذا نَتَجَ عن تجسيدٍ لظلمٍ تاريخيّ وتاريخٍ غيرِ أخلاقيّ؟

هل في صور الوطن الموجودة في حلمنا متَّسعٌ لألوان عديدة: لإنسانٍ حرّ، لامرأةٍ تحقّق ذاتَها، لطفلةٍ تفكّر وتَكْتشف دون إملاء ودون قمع، لفنّانٍ يُبْدع دون رقابة خارجيَّة أو رقابةٍ ذاتيَّة، لفقيرٍ يحتجّ ويفكّر ويطالب، لسياسيٍّ يَرْفض أنْ يَنْضمّ إلى القطيع ـ وما أكثرَ القطعان في وطننا الرحب ـ، لجدلٍ، لحبٍّ، لاختلافٍ، لتحليقٍ، لنقدٍ، لتجديدٍ، لاستلهامٍ، لتواصلٍ،... لإنسانيَّة؟

في هذا الملفّ المزدوج نَبْحث عن الإجابات، أو نعيدُ طرحَ الأسئلة بشكلٍ مختلف. لا نتَّفق بالضرورة على شيء سوى حبِّنا للحريَّة والكرامةِ والإنسانيَّةِ، وإصرارنا على عودة الغائب/المغيَّب: عودةِ الحديث عن فلسطين ديموقراطيَّةٍ علمانيَّةٍ، بعد أن بَهتَ خطابُ «٣٤ عامًا من الاحتلال؛» عودةِ الحديث عن الإنسان فينا، الذي يَسْبق فلسطينيَّتَنا وعروبتَنا؛ عودةِ الحديث عن عودةِ اللاجئين لنفي ظلمٍ تاريخيٍّ تناسيناه لاعتبارات السياسة والإتيكيت؛ عودةِ الحديث عن دورنا في صياغة هويَّتنا الجديدة بدلاً من تقبُّلها من «أعلى» دونما حراك.

وما كان لكل هذه الأحاديث أن تُباح لولا مجالُ الحريَّة وحريَّةُ المجال اللذيْن أتاحتهما لنا مجلةُ الآداب.

رام الله